العاطفة الدينية
وأثرها في البحث اللغوي العربي
دراسة لغوية في «الصاحبي» لابن فارس

دكتور عبد المحسن الطيب

من الامور التى أصبحت من المسلمات التى لا تحتمل الجدل والنقاش ان يخلص البحث اللغوى للغة فلا يدخل فيه ما ليس منها حتى تكون النتائج لغوية محضة • وحتى لا يغير مسار البحث بما يخالطه من الهوى الشخصي او الغرض الذاتى او العاطفة الخاصة أو النزعة المعينة مهما سمت هذه الامور واتسمت بالرقى • فعالم اللغة كأى عالم في اى مجال من مجالات العلوم طبيعية او انسانية يحاذر أن يتأثر في بحثه بما هو خارج عن نطاقه مما لا يعد منه لتكون النتائج التى يتوصل اليها ببحثه لغوية وليكون بحثه متسما بالعلمية •

ولكى يحقق ذلك يتخلص من كل ما لا يمت الى اللغة بصلة فيجعل مادته وموضوع بحثه النصوص اللغوية ينظر فيها ويرصدها ويحللها ويصفها ثم يقنن ذلك في صورة قواعد وضوابط لها صفة الاغلبية ان لم يتحقق لها الاطراد •

ولغويونا القدامى – خاصة الرواد الاوائل – كانوا على جانب كبير من هذه المنهجية العلمية، فقد جمعوا النصوص اللغوية وقاربوا – في جمعهم – حد الاستقصاء • وتحروا أن يكون ما جمعوه نقيا خالص العروبة لا يخالطه شيء من العجمة فتيقنوا من صحته وفصاحة أصحابه واستوثقوا من أمانة رواته واستعانوا في ذلك

بمنهج البحث الذى طبقه علماء الحديث الشريف ثم وضعوا ماجمعوه تحت منظار فحص ورصدوه رصدا دقيقا وحللوه الى أصغر العناصر وأدقها ثم وصفوا هذه العناصر وقد بينوا ما بين بعضها وبعض من وجوه شبه ، فألفوا بين المتشابهات وقرنوا المتناظرات ، وخرجوا من ذلك كله بقواعد اللغة وقوانينها ٠

ولولا أن عملهم هذا شابته بعض الشوائب التى نالت من منهجيته التى لا يرضي عنها علم اللغة لاقتعدوا من اللغويين جميعا في مختلف الامم والعصور سنام الذروة ولفاقوا سابقيهم ولاحقيهم في مضمار البحث اللغوى ، فبعض لغويينا العرب لم يتبع ما تفرضه المنهجية العلمية من خلوص التجربة وتمحضها لمستوى لغوى واحد حتى تسلم نتائج بحثه وتنجو قواعده من الاضطراب والخلل الذى يلحقها من جراء الجمع بين مستويين والتقعيد لهما معا بقواعد ينسبونها للفصحى وحدها مع أنها خليط منهما جميعا ٠ فقد خاطوا بين الفصحى واللهجات انطلاقا من معتقدهم في فصاحة العربى وسلامة سليقته (١) وأنه لا يخطىء ٠ وأن كلامه يحتج به دائما (٢) مع شعورهم باختلاف مستويات لغته باختلاف المقامات التى تستخدمها فيها ٠ فكان مثلهم كمثل علم الطبيعة الذى يخلط معدنا بآخر ثم يجرى عليهما تجربته التى تسلمه نتائج تنطبق عليهما معا ثم يتجاهل احد المعدنين في نتيجته مع أنها للمعدنين جميعا ٠

وبعض هؤلاء اللغويين ـ خاصة المتأخرين ـ جعل للقاعدة الاولوية وتركها تتحكم في النص ولو أدى ذلك الى عنقه والخروج

---

(١) د٠ براهيم أنيس : فى اللهجات العربية ٠
(٢) ابن جنى : الخصائص ٠

به عن مقصد المتكلم واللجوء الى التقدير المتعسف والتأويل المتكلف (١) ٠

وبعضهم اراد اخضاع اللغة للعقل والمنطق رغبة في أن تسايرهما وتسير بين خطين متوازيين لا تحيد عنهما ، غافلين عن أن اللغة ظاهرة اجتماعية وشأن الظواهر الاجتماعية الا تكون دائما خاضعة للمقاييس العقلية والضوابط المنطقية ٠ ولذا تكلف هؤلاء العقلانيون الشطط وركبوا العسف وضلوا سبيل البحث اللغوى فأرهقوا طلاب اللغة وعنوهم فلم يدروا ان كانوا يدرسون قضايا لغوية أو مقولات منطقية ، وما معظم الخلاف النحوى الواقع في كتبنا اللغوية الا من جراءتحكم المنطق في تفسير بعض الظواهر اللغوية من جانب فريق ، بينما يلجأ الفريق الآخر الى النص اللغوى لايتجاوزه الى المسائل المنطقية ٠

الى غير ذلك من الامور غير اللغوية التى تدخلت في البحث اللغوى من أهواء ذاتية أو اغراض شخصية أو عواطف دينية أو نزعات مذهبية أو اتجاهات فلسفية أو أفكار سائدة أو أحكام مسبقة تركها الباحثون تمسك بدفة البحث فتوجهه وجهات مختلفةباختلاف هذه الاهواء والعواطف أو تلك النزعات والاتجاهات ٠ فتميل معهواه أو تجنح جهة نزعته او تتفق مع عاطفته أو تخضع لاتجاهه وما هكذا يكون البحث اللغوى العلمى الذى يجب ان يجعل المادة أو النص اللغوى هو الذى ينطق بالنتيجة ٠

ولعل من ابرز الامور ذات التأثير في البحث اللغوى عند معظم الشعوب تلك العاطفة الدينية ، فقد فرضت هذه العاطفة نفسها

---

(١) د٠ تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ١٥ ط دار الثقافة بالمغرب واللغة بين المعيارية والوصفية ص ٢٦ ط المغرب ٠

على البحث اللغوى عند العبرانيين الذين ادعوا ان لغتهم أفضل اللغات (١) انطلاقا من شعور عنصرى عندهم بأنهم شعب الله المختار .

ولم يكن العرب بأقل من غيرهم تأثرا بالعاطفة الدينية في بحثهم اللغوى . بل لا نكون مغالين اذا قلنا ان هذه العاطفة عندهم أظهر وأوضح منها عند غيرهم لا من منطلق عنصرى كما عند اليهود ، بل من منطلق دينى ، وحجتنا أن معظم المشتغلين بالبحث اللغوى العربى لم يكونوا عربا حتى يقال انهم تعصبوا للغتهم التى يتميز بها عنصرهم .

لقد كان الدافع الى الدراسات اللغوية عند سائر الشعوب قوميا ، بينما نرى أن هذا الدافع عند العرب كان دينيا بالدرجة الاولى (٢) اذ كانت تلك الدراسات تهدف الى صون اللغة العربية لانها وسيلة فهم كتاب الله تعالى واستنباط الاحكام الشرعية منه . ومن هنا كان اشتراطهم في الفقيه المجتهد التمكن اللغوى ، ولا ننسى في هذا المقام أثر الارتباط الوثيق بين القرآن المجيد واللغة العربية . فقد كان معجزة الاسلام الكبرى . ومعجزات الرسل انما تكون من جنس ما برع فيه أقوامهم . وقد برع العرب في الكلام وافتخروا بالبيان — وشأن هذا الارتباط بين القرآن واللغة أن يجعل البحث اللغوى ذا مذاق دينى ، وان يلونه بهذه العاطفة السامية ، فقد اعتقد اللغويون العرب — وهم محقون في معتقدهم — ان في خدمة اللغة العربية والقيام على أمرها خدمة لكتاب الله تعالى ينالون عليها

---

(١) د. محمود فهمى حجازى أسس علم اللغة ط دار الثقافة سنة ١٩٧١ م ص ٤٦ وقالن بالمزاهر ١/٣٠ .

(٢) القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية د. عبد العال سالم ص ٦٤ وانظر فى علم اللغة ص ٢٩ د. محمود فهمى حجازى ط وكالة المطبوعات بالكويت .

عظيم الاجر وحسن المثوبة • ومن هنا كانوا لا يرون انفصاما بين الدرس الديني والدرس اللغوى • اذ كان الثاني وسيلة الى الاول ، وكانت الغاية المثلى من وراء البحث اللغوى انما هى الدين • ومن هنا أيضا المنهج الذى استخدموه في رواية اللغة جد قريب من المنهج الذى استخدم في رواية الحديث الشريف (١) وهو المصدر الثانى للتشريع الاسلامى بعد القرآن الكريم بل كانت مبادىء أصول الفقه تطبق بشكل واضح على اللغة حتى كانت لهم مؤلفات في ذلك تحمل عناوين تفصح عن هذا التأثر (٢) •

ومن هنا كذلك كان معظم اللغويين العرب من الاعاجم الذين انتموا الى اللغة العربية انتماءا دينيا لا قوميا • وهم في دأبهم في البحث اللغوى انما يخدمون دينهم • مما يؤكد أن الدافع الى الدراسة اللغوية كان دينيا بالدرجة الاولى •

ولم ينفصل هذا الدافع عن البحث نفسه • بل ظل في خيال الباحث وفكره يفرض عليه نفسه ويوجهه الى الوجهات التى تتفق معه ولا تتعارض ، بل ربما حاول الباحث – ارضاء لهذه العاطفة – ان يقرر ما ليس في خدمتها بالضرورة •

ولم يكن هذا التأثير مقصورا على الماضين من باحثينا اللغويين ، بل امتد الى زمننا هنا مع اختلاف بين وجهة كل منهما ، فالقدامى خضعوا في بحثهم لتأثير العاطفة الدينية التى ظهرت بوضوح في

---

(١) السيوطى الاقتراح فى أصول النحو ، المزهر •

(٢) انظر بحثنا بعنوان النزعة المذهبية وأثرها فى البحث اللغوى العربى دراسة فى الخصائص لابن جنى منشور بالعدد الثالث من مجلة كلية البنات الاسلامية بأسيوط •

بعض ما توصلوا اليه من نتائج ، حسبوها من اللغة ، في حين ان تأثير هذه العاطفة على المحدثين بدا في دفاعهم عن اللغة انطلاقا من أن أي مساس بها انما هو في حقيقة الامر مساس بكتاب الله تعالى لانها لغته التى لا يفهم الا بفهمها ولا يصان الا بالحفاظ عليها ، كما أن في تضييعها تضييعا لتراثنا الذى دون بها فاذا ما فرط فيها ابناؤها انبتت صلتهم بماضيهم وصاروا نباتا سطحيا لا جذور له (١) .

وفي حين يقنع الباحث المنصف باتجاه المحدثين ويراه ضروريا لمواجهة اسبابه فضلا عن حفاظه على الشخصية العربية وقوامها الفصحى الموحدة الجامعة لابناء الامة بعد أن ضاع كثير من روابط الاخوة ولم يبق سواها (٢) . لا يقنع باتجاه القدامى ويراه مجافيا للمنهجية العلمية التى تفترض في البحث اللغوى خلوصه للغة وحدها حتى تكون النتائج مستمدة منها غير متأثرة بسواها ، ولو أن لغويينا التزموا بهذه المنهجية ما نال ذلك من عاطفتهم الدينية في شيء ولا مس شيئا من معتقداتهم الدينية من قريب أو بعيد ، بل ربما أدى ذلك الى فهم احسن لمرمى هذا الكتاب العزيز ، لما تؤدى اليه هذه المنهجية من سهولة فهم لغته .

والنموذج الذى سوف نقدمه في هذا البحث هو كتاب (الصاحبى في فقه اللغة) لاحمد بن فارس الرازى . فأنا نعده من خير النماذج لهذه الظاهرة ، ظاهرة التأثر بالعاطفة الدينية ، وقد وضح هذا الاثر في كثير من مباحثه التى سوف نقف على أبرزها لنرى الى أى مدى كان تأثير العاطفة الدينية فيما توصل اليه من نتائج .

وأمارة وضوح هذا الاثر ان يجد قارىء صفحاته الاولى ومباحثه

---

(١) اللغة العربية فى مواجهة الحياة للمؤلف .
(٢) جورجى زيدان : الهلال .

المتقدمة وقد علتها سمات دينية تتمثل في القول بأن اللغة العربية نشأت بطريق الوحى (١) وانها أفضل اللغات (٢) وأولها أو أسبقها في الوجود واغزرها مادة واكثرها اتساعا في التعبير وانقاها من شائبة الدخيل (٣) وغير ذلك من المباحث التى سنعرضها في هذا البحث من وجهة نظر ابن فارس المتأثرة بهذه العاطفة ٠

وانما وضح هذا التأثر عند ابن فارس لانه لم يستطع التجرد من هذه العاطفة القوية المتمكنة منه والمسيطرة عليه اثناء بحثه حتى انها وجهته وجهات أقرب الى القضايا الدينية منها الى القضايا اللغوية ، وفي الحق ان ابن فارس كان متدينا الى الحد الذى جعله يرحل الى بغداد طلبا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه لم يكن بالرى ما يشبع رغبته من هذه الناحية (٤) ،بل الى الحد الذى جعله يتعاطف مع مذهب الامام مالك فيتحول عن مذهبه الشافعى اليه لانه لم يجد في مدينة الرى من يفتى على هذا المذهب وفي ذلك يقول : « دخلتنى الحمية لهذا البلد (الرى) كيف لا يكون فيه رجل على مذهب هذا الرجل المقبول القول على جميع الالسنة » (٥) ٠ ثم ان ابن فارس لم يدع انه مبتكر ما تضمنه كتابه من قضايا لغوية ، بل على العكس من ذلك يصرح بأن جهده في هذا الكتاب لا يعدو « جمع ماتفرق في بطون الكتب أو شرح ما أشكل أو بسط ما أوجز او ايجاز واختصار ما انبسط » (٦) ويعنى هذا ان الافكار التى ضمها « الصاحبى »

---

(١) الصاحبى ص ٦ ـ ٨ ٠
(٢) المرجع نفسه ص ١٦ ـ ٢٥ ٠
(٣) المرجع نفسه والصفحات ذاتها ٠
(٤) ابن فارس اللغوى ٠
(٥) المرجع نفسه ٠
(٦) الصاحبى ص ٥ ٠

والتى بدا فيها اثر العاطفة الدينية واضحا لم تكن منسوبة الى ابن فارس الا بالقدر الذى أسهم به في نشرها بكتابه وموافقته عليهـا وعدم معارضتها فاقتفى فيها اثار السالفين ٠

وفيما يلى نقف مع هذه الافكار نعرضها من وجهة نظر ابن فارس ثم نعقب عليها بما نراه وجه الصواب ٠

١ ـ نشـأة اللغـة

ولعل اول ما يلفت النظر في « الصـاحبى » موضوع نشـأة اللغة الانسانية وقد اسقط علماء اللغة المحدثون هـذا الموضـوع من حسابهم ، ولم يعد يدرج ضمن الموضوعات التى يبحثونها نظرا لان نشأة اللغة تضرب في أعماق التاريخ ولا يملك الباحث سـندا يستند اليه أو يهتدى به الى الكيفية التى نشأت عليها (١) ٠

غير ان اللغويين القدامى على اختلاف انتمائهم القـومى كان يحلو لهم دائما الخوض في هذا الموضوع والادلاء بأرائهم فيه ومحاولة تأييد هذه الاراء بالادلة وقد كان لغويونا العرب ممن أدلوا بدلوهم في هذا الموضوع ، بل ان معظمهم جعل له الصدارة فيما ألف على النحو الذى نجده في « الخصائص » لابن جنى (٢) وهو من معـاصرى ابن فارس ، فقد استعرض في مستهل الكتاب أفكار اللغويين العـرب فيما يتصل بنشأة اللغة الانسانية عموما ٠

---

(١) اللغة جوزيف تندريس ترجمة والدواخلى والقصاص ص ٢٩ـ٤٣ علم اللغة مقدمة للقارىء العربى د٠ محمود السعدان ص٥٦ ط دار المعارف سنة ١٩٦٢ ٠

(٢) الخصائص لابن جنى ١٤/١ ٠

أما ابن فارس فقد كان حديثه عن نشأة اللغة العربية وليس عن نشأة اللغة الانسانية اعتقادا منه بأولية العربية واسبقيتها ، جاء ذلك في « باب القول على لغة العرب ، أتوقيف أم اصطلاح » (١) وفي هذا الباب يقول « أقول ان لغة العرب توقيف » وقد استند ابن فارس الى الدليل النقلى من القرآن الكريم « ودليل ذلك قوله جل ثناؤه « وعلم آدم الاسماء كلها » فكان ابن عباس يقول : علمه الاسماء كلها ، وهى هذه الاسماء التى يتعارفها الناس من دابة وارض وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك من الامم وغيرها ، وروى خصيف عن مجاهد ، قال : علمه اسم كل شيء ، وقال غيرهما : انما علمه أسماء الملائكة . وقال آخرون : علمه أسماء ذريته أجمعين والذى نذهب اليه ما ذكرناه عن ابن عباس » .

ثم أخذ يناقش ما يمكن ان يثار من اعتراضات حول الدليل فقال : « فان قال قائل : لو كان ذلك كما نذهب اليه لقال : ثم عرضهن او عرضها ، فلما قال (عرضهم) علم أن ذلك لاعيان بنى آدم أو الملائكة لان موضوع الكناية (٢) في كلام العرب ان يقال لما يعقل (عرضهم) ولما لا يعقل عرضها او عرضهن .

قيل له : انما قال ذلك ـ والله أعلم ـ لانه جمع ما لا يعقل ومايعقل وهى سنة من سنن العرب ـ أعنى باب التغليب »

فان قال : أفتقولون في قولنا : سيف وحسام وعضب ، الى غير ذلك من أوصافه : انه توقيف حتى لا يكون شيء منه مصطلحا ؟ قيل له : كذلك نقول » .

---

(١) الصاحبى ص ٦ ـ ٨ .
(٢) يقصد الضمير .

ثم نجده ينتقل من الدليل النقلى الى دليل من نوع آخر أشبه بدليل الاجماع الذى يؤخذ به في القضايا الدينية والمسائل الفقهية ، فيتلمس دليلا في الاحتجاج بلغة العرب ولهجاتها على السواء فيقول « والدليل على صحة ما نذهب اليه اجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه او يتفقون عليه ثم احتجاجهم بأشعارهم ، ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحا لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم بأولى منا في الاحتجاج بنا لو اصطلحنا على لغة اليوم ، ولا فرق » .

ومن الاعتراضات التى توقعابن فارس ان تثار حول هذه الفكرة ما يترتب على القول بأن اللغة وحى وتوقيف من نزولها على آدم دفعة واحدة فسارع الى توضيح معنى كونها وحيا فقال : « ولعل ظانا يظن أن اللغة التى دللنا على أنها توقيف انما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد ، وليس الامر كذا ، بل وقف الله جل وعز آدم ـ عليه السلام ـ على ما شاء أن يعلمه اياه حتى انتهى الامر الى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ما شاء الله جل وعز من ذلك ما لم يؤته احدا قبله على ما أحسنه من اللغة المتقدمة ، ثم قر الامر قراره ، فلا نعلم لغة من بعده حدثت » .

ان ابن فارس يحاول بهذا أن يوفق بين ما ذهب اليه وبين وظيفة اللغة فان كثيرا من المعانى استحدثت بعد آدم الذى لم يكن في حاجة الا الى قدر محدود من الالفاظ لقلة المعانى التى يعبر بها عنها ، فذهب الى القول بأن اللغة اوحيت منجمة بحسب الحاجة حتى اذا اكتملت الحاجات في عهد خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم اكتملت اللغة . وهذا يعنى أنه لم يجد شيء من المعانى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحتاج الناس الى ألفاظ يعبرون بها عنه .

ولا يخلو ذلك من مغالطة بل وادعاء لا يتفق مع واقع الحياة التى تقذف كل يوم بجديد المعانى .

ثم يستدل على قرار أمر اللغة بالرسالة الخاتمة بعدم اعتراف العلماء بالجديد من الالفاظ ورفضهم لما لم يرد عن العرب « فان تعمل اليوم لذلك متعمل وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده ، ولقد بلغنا عن أبى الاسود ان امرأ كلمه ببعض ما أنكره أبو الاسود ، فسأله ابو الاسود عنه ، فقال : هذه لغة لم تبلغك ، فقال له : يا ابن أخى ، انه لا خير لك فيما لم يبلغنى ، فعنرفه بلطف ان الذى تكلم به مختلق » .

وخلة أخرى أنه لم يبلغنا ان قوما من العرب في زمان يقارب زماننا أجمعوا على تسمية شيء من الاشياء مصطلحين عليه ، فكنا نستدل بذلك على اصطلاح قد كان قبلهم ، وقد كان في الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - وهم البلغاء والفصحاء - من النظر في العلوم الشريفة ما لا خفاء به ، وما علمناهم اصطلحوا على اختراع لغة أو احداث لفظة لم تتقدمهم ، ومعلوم ان حوادث العالم لا تنقضي الا بانقضائه ، ولا تزول الا بزواله .

وفي كل ذلك دليل على صحة ما ذهبنا اليه في هذا الباب .

وفيما نقلناه عن ابن فارس في (الصاحبي) نجد أثر العاطفة الدينية واضحا تمام الوضوح ، فقد استند الى النص القرآنى فيما قرره بخصوص نشأة اللغة العربية عن طريق الوحى ، لذلك كانت توقيفية لا يسوغ لاحد أن يغير فيها او يضيف اليها أو يستحدث من الالفاظ ما لم يرد به نص ، وانها أوحيت الى الرسل بدءا من آدم عليه السلام وانتهاء بخاتم الرسل صلى الله عليه وسلم ومرورا بسائر الانبياء والمرسلين ، فاوحيت منجمة ونزلت عليهم على دفعات حسب مقتضيات الاحوال .

وقد ربط بين فكرته هذه وبين وقوف الاحتجاج عند عصر معين

لا يتعداه اللغويون ، توقفوا عند المسموع المروى المنسوب اليه • وقد فسر ذلك بأنهم وقفوا عندما اوحاه الله الى الرسل • ولم يجترئوا على اختراع شيء فيها ، مع أن حوادث العالم لا تنقضي الا بانقضائه ولا تزول الا بزواله •

واذا كان ابن فارس قد أحس بما في فكرته من ضعف يتمثل في استحداث معان او استكشاف امور لم يفطن اليها السابقون وان هذه الاستكشافات انما تمت على دفعات وحين احس بأن القول بتوقيف اللغة يفقدها اهم عناصرها وهو ما تؤديه نحو المجتمع من وظيفة توصيل الافكار والتعبير عن الحاجات والمعانى عالج ذلك بأن اللغة لم توح دفعة واحدة بل على دفعات ، وكان الوحى كان ينزل على الرسل المتعاقبين بألفاظ جديدة تستعمل في الدلالة على ما يجد من المعانى •

وانما يسلم له ذلك اذا كانت اللغة التى تزل بها الوحى على الرسل المتعاقبين كانت لغة واحدة ولعل ابن فارس لا يمانع في ذلك فان حديثه عن نشأة اللغة العربية التى بدات بآدم وانتهت بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم •

وفي ذلك مصادمة للنص القرآنى « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه » وقد ارسل الرسل الى أقوام لا يعرفون العربية ، فكيف تكون العربية لغة الوحى الى هؤلاء الرسل ؟

وابن فارس نفسه قد استشهد بهذه الاية على ان اللغة التى نزل بها القرآن هى العربية الخالصة من المعرب والدخيل (١) • لان رسول الاسلام خاطب بها العرب

---

(١) الصاحبى ص ٤١ •

أما أن أحدا لم يخترع شيئا من اللغة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يسلم له ذلك ، فان ابن فارس يقرر في باب الاسباب الاسلامية ظهور ما يسمى بالاسماء الصناعية (١) ويعنى بها المصطلحات التى يتفق عليها أصحاب المهن المختلفة والتخصصات المتباينة لتدل على معان خاصة بهم ٠

وقضية عدم الاحتجاج بما يجد ليس من قبل ان اللغة وحى من السماء ، بل من قبل الوقوف عندما استعمله اصحاب اللغة ومثل ذلك تصنع الجماعات اللغوية عموما ليظل للغة نقاؤها وصفاؤها ، فشأنها في ذلك شأن غيرها من اللغات التى يحرص أصحابها على الالتزام بها لانها سمة شخصيتهم من جهة ، ولان في التزام بها استقرار المجتمع على نمط لغوى يعرفه ويتعارف عليه ابناؤه فيمكنهم عن طريقه أن يتواصلوا في حاضرهم كما يكون في مقدورهم أن يوصوا فكرهم لمن يأتون بعدهم ، كما وصل اليهم فكر آبائهم الذى اصطنعت اللغة في تسجيله من جهة أخرى ٠

واخيرا فان الآية الكريمة لم تنص على ان الله أوحى اللغة العربية أو غيرها الى آدم بل نصت على ان الله علم آدم الاسماء كلها والعلم الادراك اليقينى ، وليس شرطا في التعليم أن يكون تلقينا الاسماء اسما اسما ولفظا لفظا بل ويجوز ان يكون من قبيل خلق القوة المدركة في آدم وتهيئة اعضاء نطقه لاصدار الاصوات ومنحه القدرة على تركيب الكلمات من هذه الاصوات فيكون التعليم مجازا عن تهيئة الاسباب لتعطى المسببات والنتائج ، فانه لو كان التعليم تلقينا لآدم ووحيا اليه لما ظهر فضله على الملائكة حين أنبأهم بأسمائهم أو

---

(١) الصاحبى ص ٨٦ ٠

بأسماء الاشياء التى عرضت عليهم (١) وطلب الله منهم تسميتها فعجزوا ٠

ثم ان اللغة لو كانت وحيا وتلقينا فان النص القرآنى لم يذكر انها العربية كما أنه نص على آدم ولم يتجاوزه الى غيره من الرسل عليهم السلام ، ومن بينهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتمهم حتى يفسر ابن فارس الاية متأثرا بعاطفته الدينية بأنهـــا تعنى العربية ٠ بل يذهب الى ما هو أبعد من ذلك ، فيرى أن اللغـــة كانت توحى الى الرسل حتى ختمت برسالة الاسلام ٠

٢ ـ الامتياز اللغوى للعربية :

وللارتباط الوثيق بين اللغة العربية والقرآن الكريم ، اذ كانت اللغة التى نزل بها ، وللعاطفة الدينية القوية عند ابن فارس رأى في هذه اللغة من الميزات ما لم يرد في غيرها ٠ وقد تجلى ذلك في البـــاب الذى عقده بعنوان (لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها) (٢) ،ودليل أفضليتها عنده نزول القرآن الكريم بها ، كما أن دليل اتساعها ذلك الثراء اللفظى الذى يتمثل في هـــذا الكم الوافر من المترادفات وتلك الكثرة الكاثرة من الالفاظ ذات المعنى الواحد ٠ ثم ذلك العجز الظاهر عن التعبير عن المعانى القرآنية أو ترجمتها الى لغة اخرى ٠

لقد أخذ يسوق فكره مساقا دينيا فبدأ عقيب العنوان بذكر الاية الكريمة : « وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين ٠ على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » فوصفه جل ثناؤه بأبلغ مـا يوصف به الكلام وهو البيان ٠ وقال جل ثناؤه : (خلق الانسان ، علمه

---

(١) انظر تفسير الآية ٣١ من سورة البقرة فى تفسير ابن كثير ٨٦/١
(٢) الصاحبى ص ١٦ ـ ٢٥ ٠

البيان) فقدم جل ثناؤه ذكر البيان على جميع ما تورحد بخلقه وتفرد بانشائه من شمس وقمر ونجم وشجر وغير ذلك من الخلائق المحكمة والنشايا المتقنة ، فلما خص جل ثناؤه اللسان العربى بالبيان ، علم أن سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه ٠

ثم أخذ يثير ما يمكن أن يتوقع من تساؤلاته ويرد عليها فقال : « فان قال قائل : قد يقع البيان بغير اللسان العربى ، لان كل من أفهم بكلامه على شرط لغتهفقد بين » ٠

قيل له : ان كنت تريد ان المتكلم بغير اللغة العربية قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده ، فهذا أحسن مراتب البيان ، لان الابكم قد يدل باشارات وحركات له على أكثر مراده ثم لا يسمى متكلما فضلا عن ان يسمى بينا أو بليغا ٠

وان أردت ان سائر اللغات تبين ابانة اللغة العربية ، فهذا غلط لانا لو احتجنا الى ان نخبر عن السيف واوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك الا باسم واحد ، ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة ، وكذلك الاسد والفرس ، وغيرهما من الاشياء بالاسماء المترادفة فأين هذا من ذلك ، وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب ؟ هذا ما لا خفاء به على ذى نهية » ٠

ثم أخذ يورد ما تمتاز به لغة العرب من المجازات المختلفة والظواهر اللغوية من قلب وتقديم وتأخير مما يعد من سنن العرب التى لا يجد لها نظيرا في غير لغتهم ، والتى بسببها يعجز غير العرب عن ترجمة ماجاء منها في القرآن الى السنتهم على عكس الانجيل الذى امكن ترجمته عن السريانية الى الحبشية والرومية وعلى عكس التوراة والزبور وسائر كتب الله عز وجل الذى أمكن ترجمتها الى العربية « لان العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب » ألا ترى انك لو اردت

أن تنقل قوله جل ثناؤه (وامّا تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء) لم تستطع ان تأتى بهذه الالفاظ المؤدية عن المعنى الذى اودعته حتى تبسط مجموعها ، وتصل مقطوعها ، وتظهر مستورها فتقول : ان كان بينك وبين قم هدنة وعهد فخفت منهم خيانة ونقضا فاعلمهم انك قد نقضت ما شرطت لهم ، وأذنهم بالحرب لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على استواء . وكذلك قوله جل ثناؤه (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا) .

ومع ذلك فان ابن فارس يرى أن هذه الخصوصية ليست لذاتية اللغة العربية بل لخصوصية في النظم القرآنى ، قال : « فان قال قائل : فهل يوجد في سنن العرب ونظومها ما يجرى هذا المجرى ؟

قيل له : ان كلام الله جل ثناؤه أعلى وأرفع من أن يضاهى أو يقابل أو يعارض به كلام ، وكيف لا يكون كذلك وهو كلام العلى الاعلى خالق كل لغة ولسان » .

وربما كان أيضا سمة اللغة الشعر التى تختلف عن لغة النثر فقال : « لكن الشعراء قد يؤمنون ايماء ويأتون بالكلام الذى لو أراد مريد نقله لاعتاص ، وما أمكن الا ببسط من القول وكثير من اللفظ » .

ثم أخذ يسوق الشواهد والامثلة على امتياز اللغة العربية ، ولم يخرج بما ساقه عن أن يكون من خصائصها كالاعتلال والادغام والقلب والابدال ، وهى أمور ترجع في معظمها الى التخفف من الجهد العضلى الذى لا تخلو منه لغة من اللغات ، وذلك خضوعا لقانون الميل الى السهولة وهو قانون عام يشمل اللغات عموما .

وعلى فرض تفرد العربية بمثل هذه الظواهر فانها لا تعدو أن

تكون من خصائصها ، ولكل لغة خصائص تنفرد بها لا تعطيها الافضلية ولا تمحنها السبق والامتياز ، إذ أنها لا تزيد عن كونها وسائل تصطنعها اللغة في محاولة للتخفف من الجهد العضلى حتى يمكنها التعبير عن المعانى في سهولة ويسر ٠

أما أن للاسلوب القرآنى خاصية يعاجز الناس بسببها عن ترجمة معانيه ، فذلك لان نظمه هو سر اعجازه الذى تحدى به العرب أصحاب اللغة ، فكيف يعد ذلك دليل فضل العربية على اللغات وأصحاب اللغة أنفسهم أعياهم أسلوبه ونظمه فعجزوا عن الاتيان بشيء من مثله ، ان للغة القرآن ونظمه خاصية تفرد بها فكانت سر اعجازه ، كما أن للغة الشعر خاصية أيضا يتميز بها ٠

٣ ـ اتساع العربية :

وقد سبق أن أشرنا الى أن ابن فارس يعد اتساع العربية أحد مميزاتها على اللغات الاخرى إذ تفضلها بغزارة ألفاظها وكثرة مترادفاتها واختلاف طرقها في التعبير عن المعنى الواحد ، واثر العاطفة الدينية في هذا أنه أرجع ذلك الاتساع الى انها لغة موحاة من السماء فيعجز البشر عن الاحاطة بها والالمام بمفرداتها وطرائقها في التعبير فلا يحيط بها الا نبى ، ولم لا ، وهى وحى من الله تعالى الى انبيائه من لدن آدم الى سيدنا محمد خاتم الانبياء ٠

ولذلك استبعد أن يصدر عن الخليل بن أحمد ـ وهو من هو علما وورعا وتقوى ـ قوله : هذا آخر كلام العرب » (١) ٠

الحقيقة أن اللغة ـ أية لغة ـ هى مجموع ما في عقل الجماعة

---

(١) الصاحبى ص ٢٦ ٠

اللغوية وهى اوسع دائرة مما يستخدمه الفرد فعلا ، فان الفرد ـ مهما أوتى من مقدرة لغوية ـ ليس في مقدوره ان يستخدم كل ما في عقل الجماعة اللغوية التى ينتمى اليها من المفردات أو طرق التعبير ٠ وليس ذلك خاصا بالعربية وحدها ٠ بل في سائر لغات البشر (١) ٠

٤ ـ القرآن الكريم والعرب :

ومن البحوث التى تأثرت كثيرا بالعاطفة الدينية مدى اشتمال القرآن الكريم على العرب ، فقد كانت هذه القضية محل نزاع وأخذ ورد وتجاذبها الاثبات والنفى والقبول والرفض بين اخذ بظاهر النص القرآنى فيحاول أن يثبت عروبة بعض الالفاظ التى يرى الآخرون عجمتها ثم يفسرون النص القرآنى بما لا يتعارض مع عجمة هذه الالفاظ ٠

وفي هذه المرة نجد ابن فارس يستعرض آراء الفريقين ويميل الى ترجيح الرأى القائل بأنها ألفاظ اعجمية صادف القرآن الكريم ـ وقت نزوله ـ العرب يستعملونها ولا ينكرونها فضمنها آياته ،لانها عدت من مفردات لغتهم بها يتكلمون ، ويفهمون معانيها ، ولا يشعرون بغرابتها واشتمال القرآن على مثل هذه الالفاظ لا ينال من عربيته ٠٠

وقد تناول ابن فارس هذه القضية في « باب القول في اللغة التى بها نزل القرآن وأنه ليس في كتاب الله جل ثناؤه شيء بغير لغة العرب » (٢) ٠

---

(١) انظر المدخل الى علم اللغة د٠ محمود فهمى حجازى ٠
(٢) الصاحبى ص ٣٩ ـ ٤٧ ٠

ويبدأ هذا الباب بذكر اشتمال القرآن على لهجات العرب التى يسميها لغات أى انه نزل بلغة استوعبت كثيرا من اللهجت ، قال « عن ابن عباس قال نزل القرآن على سبعة أحرف أو قال سبع لغات ، منها خمس قبائل أو أربع ، منها سعد بن بكر وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف ٠

قال أبو عبيد : وأحسب أفصح هؤلاء بنى سعد بن بكر ، وذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا أفصح العرب بيد (١) انى من قريش وانى نشأت في بنى سعد بن بكر » وكان مسترضعا فيهم ، وهم الذين قال فيهم أبو عمرو بن العلاء : أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم ٠

وعن عبد الله بن مسعود أنه كان يستحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر ٠

وقال عمر : لا يملين في مصاحفنا الا غلمان قريش وثقيف ٠

وقال عثمان : اجعلوا المملى من هذيل والكاتب من ثقيف ٠

ومضمون هذه الاقوال أن القرآن الكريم استوعب لهجات القبائل العربية الشمالية وهو معنى قوله تعالى « وبلسان عربى مبين » فيشمل اللغة ولهجاتها ٠

قال أبو عبيد : فهذا ما جاء في لغات مضر ٠ وقد جاءت لغات لاهل اليمن في القرآن معروفة ، منها قوله جل ثناؤه « متكئين فيها على الارائك » فحدثنا أبو الحسن على ، عن على بن عبد العزيز

---

(١) فى الفائق للزمخشرى ١٢٣/١ وروى (بيد) وفى النهاية لابن الأثير ١٠٣/١ بيد وكلاهما بمعنى غير وانظر لسان العرب (م ى د)

عن أبى عبيد ، قال : حدثنا هشيم ، أخبرنا منصـور قال . كنـا لا ندرى ما الارائك حتى لقينا رجلا من أهـل اليمن ، فأخبرنا أن الاريكة عندهم : الحجلة (١) فيها سرير .

قال أبو عبيد : فحدثنا الفزارى عن نعيم بن أبى بسطام عن أبيه عن الضحاك بن مزاحم في قوله جل وعز « ولو ألقى معاذيره » قال : ستوره ، وأهل اليمن يسمون الستر : المعذار .

وزعم الكسائى عن القاسم بن معن في قوله جل وعز « اسـكن أنت وزوجك الجنة » أنها لغة لازدشنوءة وهم من اليمن .

ويروى مرفوعا . ان القرآن نزل على لغة الكعبين : كعب بن لؤى وكعب بن عمرو وهو أبو خزاعة .

فأما قولنا أنه ليس في كتاب الله تبارك وتعالى شيء بغير لغة العرب ، فلقوله تعالى « انا جعلناه قرآنا عربيا » (٢) وقال : « وما ارسلنا من برسول الا بلسان قومه » (٣) وقرئت بلسن (٤) قومه .

فحدثنى أبى قال : حدثنى أبو نصر ابن أخت الليث بن أدريس عن خاله الليث عن ابن السكيت قال : حكى أبو عمرو : لكل قـوم « لسن أى لغة يتكلمون بها » .

---

(١) الحجلة (بالتحريك) مثل القبة ، وحجلة العروس : بيت يزين بالثياب والأسرة والستور (لسان العرب ح ج ل) .

(٢) سورة الزخرف آية ٢ .

(٣) سولة ابراهيم آية ٤ .

(٤) اللسن بكسر اللام وسكون السين : اللغة (لسان العرب ل س ن)

وقال الله تعالى : « بلسان عربي مبين » (١) ٠

وقال ابن عباس : ما أرسل الله جل وعز من نبي الا بلسان قومه ، وبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بلسان العرب ٠

وادعى نفس بأن في القرآن ما ليس من لغة العرب حتى ذكروا لغة الروم والقبط والنبط (٢) ٠٠٠ قال أبو عبيدة : انما أنزل القرآن بلسان عربي مبين ٠ فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول، ومن زعم أن كذا بالنبطية ، فقد أكبر القول ٠٠ وقد يوافق اللفظ اللفظ ويفارقه ومعناهما واحد واحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها ٠٠ فمن ذلك الاستبرق بالفارسية ٠ وأهل مكة يسمون المسح الذي يجعل فيه أصحاب الطعام البر : البلاسي وهو بالفارسية بلاس ٠ (أي بباء تخف شدتها قليلا) فأمالوها واعربوها ، فقاربت الفارسية العربية في اللفظ والمعنى ٠

ثم ذكر أبو عبيدة : البالغاء : وهي الاكارع ، والقمنجر : الذي يصلح القسي ، والدشت ، والخيم (٣) والسخت (٤) ثم قال : ذلك كله من لغات العرب وان وافقه في لفظه ومعناه شيء من غير لغاتهم ٠

وهذا كما قاله أبو عبيدة ، وقول سائر أهل اللغة انه دخل في كلام العرب ما ليس من لغاتهم ، فعلى هذا التأويل الذي تأوله أبو عبيدة ٠

---

(١) سورة الشعراء آية ١٩٥ ٠
(٢) الاتقان للسيوطي ١/٢٣٠ ٠
(٣) الخيم بكسر الخاء وسكون الياء ٠ الطبيعة (لسان العرب خ ى م) ٠ والجهرة ٣/٣٤٠ ٠
(٤) الصلب : الجهرة ٣/٤٩٩ اللسان (س خ ت) ٠

فأما أبو عبيد القاسم بن سلام فأخبرنى عـــلى بن ابراهيم عن عـــلى بن عبد العزيز عن أبى عبيد قال : أما لغـــات العجم في القرآن ، فان الناس اختلفوا فيها ، فروى عن ابن عباس وعن مجاهد وابن جبير وعكرمة وعطاء وغيرهم من أهل العلم ـ أنهم قالوا في أحرف كثيرة : انها بلغات العجم ، ومنها طه ، والم ، والطـــور ، والربانيون فيقال انها بالسريانية ٠

ومنها قوله جل وعز : الصراط ، والقسطاس والفـــردوس ، يقال انها بالرومية ٠

و قوله جل وعز « كمشكاة » و « كفلين من رحمته » يقال انها بالحبشية ٠

وقوله « هيت لك » يقال انها بالحورانية ٠

قال فهذا قول أهل العلم من الفقهاء ٠٠٠ وزعم أهل العربية أن القرآن ليس فيه من كلام العجم شيء ، وأنه كله بلسان عـربى ، يتأولون قوله جل ثناؤه « انا جعلناه قرآنا عربيا » وقوله « بلســـان عربى مبين » ٠٠٠ والصواب من ذلك عندى ـ والله أعلم ـ مذهب فيه تصديق القولين جميعا ، وذلك أن هذه الحروف أصولها عجمية ـ كما قال الفقهاء ـ الا أنها سقطت الى العرب بألسنتها ، وحولتها عن الفاظ العجم الى الفاظها فصارت عربية ، ثم نزل القـــرآن وقـــد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال انها عربية فهـــو صادق ، ومن قال : عجمية فهو صادق ٠

وانما فسرنا هذا لئلا يقدم أحد على الفقهاء فينسبهم الى الجهل ويتوهم عليهم أنهم اقدموا على كتاب الله جل ثناؤه بغير ما أراد الله جل وعز ، وهم كانوا أعلم بالتأويل وأشد تعظيما للقرآن ٠

قال احمد بن فارس : وليس كل من خالف قائلا في مقالته ، فقد ننسبه الى الجهل ، وذلك أن الصدر الاول اختلفوا في تأويل آى من القرآن ، فخالف بعضهم بعضا ثم خلف من بعدهم من خلف ، فأخذ بعضهم بقول ، واخذ بعض بقول ، حسب اجتهادهم وما دلتهم الدلالة عليه ، فالقول اذن ما قاله أبو عبيد وان كان قوم من الاوائل قد ذهبوا الى غيره ٠

فان قال قائل : فما تأويل قول أبى عبيدة ، فقد اعظم واكبر ؟

قيل له تأويله أنه أتى بأمر عظيم وكبير وذلك أن القرآن لو كان فيه من غير لغة العرب شيء لتوهم متوهم أن العرب انما عجزت عن الاتيان ، بمثله لانه أتى بلغات لا يعرفونها وفي ذلك ما فيه ٠

واذا كان كذا فلا وجه لقول من يجيز قراءة القرآن في صلاته بالفارسية ، لان الفارسية ترجمة غير معجزة ، وانما أمر الله جل ثناؤه بقراءة القرآن العربى المعجز ٠

ولو جازت القراءة بالترجمة الفارسية لكانت كتب التفسير والمصنفات في معانى القرآن باللفظ العربى أولى بجواز الصلاة بها ، وهذا لا يقوله أحد ٠

بعد هذا العرض لما جاء في هذا الباب من أبواب الصاحبى يتضح بجلاء الاثر الدينى الذى حدا بالعلماء الى تناول موضوع لغة القرآن الكريم وما اذا كانت ألفاظه جميعها عربية خالصة أو دخلها شيء من ألفاظ ليست عربية الاصل ٠

وقد وجدنا أن العلماء على اختلاف اتجاهاتهم لا ينكرون اشتمال القرآن الكريم على بعض الالفاظ التى توجد في اللغات غير العربية

بلفظها ومعناها ، لكنهم يختلفون في تفسير وجـــودها ، وبيـــان جنسيتها ، بين قائل أنها عربية الاصل ووجودها في اللغات الاخـرى من قبيل اتفاق اللغات ، فالكلمة الموجودة في اللغة العربية تصـادف وجودها بلفظها ومعناها في لغة أخرى غير العربية . واذا وقع خلاف بينهما فمرجعه الى خصائص كل لغة ، ومع ذلك فهو خـلاف يسير لا يتباعد اللفظان بسببه .

ويأبى أبو عبيدة أن يعد ذلك من الاقتراض اللغـوى المسمى بالتعريب وهو اخضاع اللفظ الاعجمى للصياغة العربية مع انه ليس في ذلك ما يشين العربية او ينال من قدرتها اللغوية ، فان اللغـات جميعها يقترض بعضها من بعض ، وقد امتازت العربية بأنهـا تستوعب الالفاظ التى تقترضها وتضفى عليها السمة العـربية بحذف بعض حروفها أو اضافة حروف اليها أو استبدال حـروف عربية بحروفها التى ليس لها في العربية نظير .

وانما دفعه وغيره الى ذلك ظاهر النص القرآنى : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » و « انا جعلناه قرآنا عربيا » و « بلسان عربى مبين » وعند القائلين بهذا الرأى أن وجود لفظ في القرآن من غير لغة العرب يخالف هذا النص ويدخل في باب الزعم « انما أنزل القرآن بلسان عربى مبين ، فمن زعم ان فيه غير العربية ، فقـد أعظم القول ، ومن زعم أن كذا بالنبطية فقد أكبر القول » .

والواقع أن اشتمال القرآن على بعض الالفاظ غـير العربية لا يخرجه عن كونه عربيا ، اذ كانت الكثرة الكاثرة من ألفاظه عربية أصيلة ، ولا تقارن بهذه الكثرة تلك القلة القليلة من الالفاظ غـير العـربية .

ثم ان هذا الكم القليل من الالفاظ كان معربا وقت نزول القرآن الكريم ، بمعنى أنه دخل الى لغة العرب من اللغـــات غير العربية وأخضع لمنهج العربية وسننتها في الصياغة واستعمله العرب وكثر استعمالهم له حتى لم يشعروا ـ مع المداومة على استعماله ـ بأنه أجنبى عن لغتهم مقترض من لغات أعجمية ٠

وعندما نزل القرآن بلغة من أرسل اليهم اشتمل على هذه الالفاظ لانها صارت ـ منذ زمن ـ من ألفاظهم (١) ، وهذا ما ذهب اليـــه أبو عبيد ، ووافقه فيه ابن فارس ، قال : « ان هذه الحروف أصولها اعجمية ـ كما قال الفقهاء ـ (٢) ـ الا انها سـقطت الى العـرب فأعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم الى ألفاظها فصارت عربية ٠ ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب » ٠

ويعقب ابن فارس على هذا بقوله : « فالقول اذن ما قاله أبو عبيد ، وان كان قوم من الاوائل قد ذهبوا الى غيره » ٠

وأخيرا ان تخوف الذين أنكروا وجود ألفاظ أعجمية في القـرآن الكريم ، بدعوى أن يتوهم أن العرب عجزت عن الاتيان بمثل هـذه الالفاظ والتعبير عن معان لديها بألفاظ عربية أصيلة هذا التخـوف لا محل له ، فاللغات عموما يقترض بعضها من بعض وليست الحاجة دائما داعية الاقتراض ، بل قد تكون لدواع أخرى (٣) كالتوسع في الالفاظ فان كثيرا من الالفاظ التى اقترضت كان لها نظير في العربية

---

(١) السيوطى المزهر ١/١٥٩ ٠

(٢) لعله يقصـد فقهاء اللغة العالمين بأسرارها الذين بحثوا الأمر بحثا علميا ٠

(٣) اللغة العربية فى مواجهة الحياة للمؤلف ص ٢٣٣ ٠

يدل على ما تدل عليه • وما لم يكن كذلك فليس هنـــاك عيب في اقتراضه •

٥ ـ أثر الاسلام في اللغة العربية :

لاحظ ابن فارس أثر الاسلام في تغيير المجتمع العربى وما أحدثه من انقلاب كبير في حياة العرب من جميع النواحى الدينية والسياسية والفكرية والاجتماعية ، ولما كانت اللغة ذات وظيفـــة اجتماعية تؤديها نحو المجتمع الذى يستخدمها فيتفاهم بها ، وتفى بمطالبـه المتجددة • كان عليها أن تعبر عما جاء به الاسلام من شعائر وتعاليم ومبادىء وقيم ، لاحظ ابن فارس ذلك وأدركه فعقد في كتابه الصاحبى بابا بعنوان (الاسباب الاسلامية) (١) قال فيه : كانت العرب في جاهليتها على ارث من ارث آبائهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم ، فلما جاء الله جل ثناؤه بالاسلام حالت أحوال ونسخت ديانات وأبطلت أمور ، ونقلت من اللغة ألفاظ عن مواضع الى مواضع أخر بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت ، فعفى الآخر الاول ، وشغل القوم بعد المغاورات والتجارات وتطلب الارباح والكدح للمعـاش في رحلة الشتاء والصيف وبعد الاغرام بالصيد والمعاقرة والمياسرة ، بتلاوة الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وبالتفقه في دين الله عز وجل وحفظ ســـنن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اجتهادهم في مجاهدة أعـــداء الاســـلام •

فصار الذى نشأ عليه آباؤهم ونشؤوا هم عليه كأن لم يكن ، وحتى تكلموا في دقائق الفقه وغوامض أبواب المواريث وغـيرها من علم الشريعة وتأويل الوحى بما دون وحفظ حتى الآن •

---

(١) الصاحبى ص ٧٨ ـ ٨٦ •

فسبحان من نقل أولئك في الزمن القريب بتوفيقه عما ألفوه ونشؤوا عليه ، وغذوا به الى مثل هذا الذى ذكرناه ... فكان مما جاء في الاسلام ـ ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق ، وأن العرب انما عرفت المؤمن من الامان والايمان وهو التصديق ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافا بها سمى المؤمن بالاطلاق مؤمنا .

وكذلك الاسلام ، والمسلم انما عرفت منه أسلام الشيء ، ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء .

وكذلك كانت لا تعرف من الكفر الا الغطاء والستر .

فأما المنافق فاسم جاء به الاسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه ، وكان الاصل من نافقاء اليربوع .

ولم يعرفوا في الفسق الا قولهم (فسقت الرطبة) اذا خرجت من قشرها ، وجاء الشرع بأن الفسق : الافحاش في الخروج عن طاعة الله جلّ ثناؤه .

ومما جاء في الشرع ـ الصلاة وأصله في لغتهم : الدعاء .

وقد كانوا عرفوا الركوع والسجود ، وان لم يكن على هذه الهيئة ، فقالوا :

أو درة صدفية غواصها بهج ، متى يرها يهلّ ويسجد

وقال الاعشي :

يراوح من صلوات المليـ ـك طورا سجودا وطورا جؤارا

والذى عرفوه منه أيضا ، ما أخبرنا به على عن على بن عبد العزيز عن أبى عبيد ، قال : قال أبو عمرو : « أسجد الرجل : طأطأ رأسه وانحنى » قال حميد بن ثور :

فضولَ أزمتها أسـجدت   سجود النصارى لاربابها

وأنشـد :

فقلنَ له : اسجد لليلى فأسجدا

يعنى البعير اذا طأطأ رأسه لتركبه .

وهذا وان كان كذا فان العرب لم تعرفه بمثل ما أتت به الشريعة من الاعداد والمواقيت والتحريم للصلاة والتحليل منها .

وكذلك الصيام أصله عندهم الامساك ويقول شاعرهم :

خيل صيام واخرى غير صائمة   تحت العجاج وخيل تعلك اللجما .

ثم زادت الشريعة النية ، وحظرت الاكل والمبـاشرة ، وغير ذلك من شرائع الصوم .

وكذلك الحج لم يكن عندهم فيه غير القصد ، وسبر الجراح ، من ذلك قولهم

وأشهد من عوف حلولا كثـيرة   يحجون سب الزبرقان المزعفرا

ثم زادت الشريعة ما زادته من شرائط الحج وشعائره .

وكذلك الزكاة لم تكن العرب تعرفها الا من ناحية النماء ، وزاد الشرع ما زاده فيها مما لا وجه لاطالة الباب بذكره .

وعلى هذا سائر ما تركنا ذكره من العمرة والجهاد . وسائر أبواب الفقـه .

---

(١) يحجون : يعودون مرة بعد مرة ، السب : العمامة ، المزعفر : المصبوغ بالزعفران .

فأوجه في هذا اذا سئل الانسان عنه أن يقول في الصلاة اسمان : لغوى وشرعى ، ويذكر ما كانت العرب تعرفه ، ثم ما جاء الاسلام به

وهو قياس ما تركنا ذكره من سائر العلوم ، كالنحو والعروض والشعر ، كل ذلك له اسمان : لغوى وصناعى ٠

والواضح أن الذى أملى على ابن فارس أفكار هذا الباب ليست العاطفة الدينية بل ما لاحظه من تغير اجتماعى بسبب الاسلام فقد ذكر ما كانت عليه اللغة قبل الاسلام وأنها كانت تعبر عن مجتمعهم بعاداته وتقاليده ، فلما تغير المجتمع بالاسلام الذى نقله من حال الى حال بالقضاء على أمور لا تتفق مع مبادئه واستبدل بها أمورا أخرى ، عبرت اللغة عن هذه النقلة الاجتماعية واستعيرت ألفاظ من معانيها الوضعية للمعانى الاسلامية ، ولم يعد يذكر الناس من معناها الا المعنى الجديد « فعفى الآخر الاول » ٠

وكان للقرآن الكريم وتلاوته كما كانت لمبادئه التى اشتمل عليها أعظم الاثر في لغتهم فقد « شغل القوم بعد المغاورات والتجارات ٠٠٠ والاغرام بالصيد والمعاقرة والمياسرة بتلاوة الكتاب العزيز ٠٠٠ وبالتفقه في دين الله » ٠

وكما كان لتلاوة القرآن أثر في لغة العرب كان أيضا لحفظ سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم » اثر في لغتهم ٠

فتضافرت عوامل عدة هى في مجلها آثار الاسلام الذى غير من سلوك العرب ومبادئهم وقيمهم وطريقة حياتهم ومعيشتهم ونمط تفكيرهم ، بل حولهم من قوم أميين الى قوم مثقفين بثقافة الاسلام « فصار الذى نشأ عليه آباؤهم ونشؤوا هم عليه كأن لم يكن وحتى تكلموا في دقائق الفقه وغوامض أبواب المواريث وغيرها من علم

الشريعة ... فسبحان من نقل أولئك في الزمن القريب بتوفيقه عما ألفوه ونشؤوا عليه ، وغذوا به الى الذى ذكرناه » .

ويضرب المثل على التحولات الدلالية التى وقعت بالنسبة للالفاظ التى نقلت من معناها الوضعى الى المعنى الاسلامى كالفظ المؤمن والمسلم والكافر والمنافق والفاسق والصلاة والصيام والزكاة والحج والركوع والسجود .

ليس هذا فحسب ، فان الاسلام كما نقل العرب من الوثنية الى الوحدانية وهذب من سلوكهم فعبرت اللغة عن ذلك « وصار اللفظ معنيان احدهما لغوى والثانى شرعى » نقل العرب من دور البداوة والامية الى طور الحضارة والعلم فعبرت اللغة عن ذلك في العلوم المختلفة من علوم لغوية كالنحو فيما عرف بالمصطلحات العلمية وصار للفظ أيضا معنيان : أحدهما لغوى وضعى والآخر صناعى .

فأثر الدين في هذا الباب ليس في البحث اللغوى بل في اللغة نفسها وموقف علم اللغة من الاثرين جد مختلف .

وبعد هذه السياحة اللغوية في كتاب « الصاحبى »لابن فارس يتبين لنا أن للدين أثره الواضح في البحوث اللغوية التى قام بها أسلافنا فظهر بوضوح تأثرهم بالعاطفة الدينية التى أرادوا ان يغذوها بما قاموا به من بحوث ، فقالوا بأن اللغة العربية وحى من الله تعالى وهذا يعنى أنها أولى اللغات البشرية وجودا في نظرهم ، كما قالوا بأفضليتها وامتيازها واتساعها في طرق التعبير والمفردات ونقائها وصفائها فلم يدخل القرآن شيء من أعجمى الالفاظ وأجنبى الكلمات .

ومثل هذه الافكار خليقة بأن تخلق في الآخرين الذين لا يدينون بالاسلام فكرا مضادا فكان منهم من يفضل لغته ويدعى سعتها

وينادى بأفضليتها ، فيدخل البحث اللغوى في مباريات لا تمدو أن تكون كلامية • سلاحها الجدل الذى لا يستند الى واقع اللغة •

غير أنه مما لا يغيب عن الاذهان أن من آثار الدين ذلك التحول في مسار اللغة خاصة في جانبها الدلالى على نحو ما تبيناه في « باب الاسباب الاسلامية » ولا يعد ما تناوله ابن فارس فيهذا الباب من قبيل تأثره بالعاطفة الدينية بل انه من قبيل تأثر اللغة نفسها بهذا الدين من قبل انه غير المجتمع وجعله من مجتمع وثنى تسوده معايير لا تتفق مع المبادىء الاسلامية السامية الى مجتمع يخالف تماما لما كان عليه في جاهليته فكان على اللغة أن تعبر عن هذا التحول الاجتماعى بكل ما يحمله من سمات دينية وخلقية وانسانية وعلمية •

والفرق كبير بين تأثر اللغة بالاسلام وبين تأثر البحث اللغوى بعاطفة دينية تملى على الباحث أفكارا يرضي بها عاطفته وان كانت لا ترضي المنهج العلمى •

د• عبد محمد الطيب
أستاذ مساعد ورئيس قسم أصول اللغة
كلية اللغة العربية جامعة الازهر فرع أسيوط